مجلة تراثية فصلية محكمة

المورد

تصدرها وزارة الثقافة والاعلام ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ جمهورية العراق
المجلد الخامس والعشرون ـ العدد الثاني ـ ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م

WWW.ATTAWEEL.COM

أسعد الديري محمد

نظرة في تراث العرب الجغرافي

د. عباس فاضل السعدون
كلية الآداب - جامعة بغداد

انبثقت عناية العرب بالجغرافية من واقع بيئتهم ، ذلك أن نشأتهم الاولى كانت في محيط حتم عليهم أن يلموا بالمعلومات الجغرافية المختلفة ، إذ لم يكن في استطاعتهم اداء الطقوس الدينية ، وانجاز معاملات البيع والشراء وتسديد الديون إلا إذا ضبطوا مواعيدها .[1] وما كان لهم أن ينتقلوا بإبلهم وضانهم ، وهي أثمن ما يمتلكون ، الا اذا عرفوا موارد الماء ، ومنابت العشب ، ونوع الحيوان السارح في الصحراء . ولم يكن في استطاعتهم أن يقوموا برحلاتهم السلمية والحربية ، ولا سيما التجارية منها ، في فجاج الصحراء إلا إذا عرفوا الشيء الكثير عن تغيرات الطقس ، ومعلومات عن النجوم وتحركات الكواكب ، يهتدون بها ويتخذون منها أدلة .[2] لهذا اهتموا بعلم الفلك وتقدموا في ميادينه ، مما جعلهم يتمتعون بمعين لا ينضب من التجارب المباشرة في مجال الجغرافية الفلكية . فقد استطاعوا توقيت ساعات الليل ، وتحديد منازل القمر بـ(٢٨) منزلًا ، والتنبؤ بحالة الطقس ، وتحديد فصول السنة الملائمة للزراعة . وهو ما عُرف عند العرب باسم « النوء » ـ جمع أنواء ـ الذي ارتبط بالظواهر الجوية ارتباطاً وثيقاً ، والفوا فيه كتباً عديدة ، ويرجع احدها الى واحدٍ من أوائل الجغرافيين العرب وهو ابن خرداذبة .[3] (شكل ١)

وخبرة العرب الفلكية والبحرية وبطرق الصحراء ومسالكها مكنتهم من اداء دورهم ـ في فترة ما قبل الاسلام ـ كوسيط في التبادل التجاري بين الهند وافريقيا الشرقية من ناحية ، وبلاد دجلة والفرات والامبراطورية الرومانية من ناحية اخرى .[4] فقد عرفوا قبل غيرهم سر الملاحة الموسمية منذ اقدم العصور ، وقاموا بنقل التجارة بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها (الى سوريا وفلسطين) في رحلتي الشتاء والصيف .

وقد حلّ سكان سواحل الجزيرة العربية محل الفينيقيين في ممارسة النشاط التجاري الذي كان يمارسه الفينيقيون في المنطقة . وفي ذلك يقول الدكتور (فيليب حتي) عنهم وعن أبناء عمومتهم الفينيقيين : « وكان سكانها كاقاربهم القدماء من أبناء الشمال أي الفينيقيين هم الوسطاء أو العملاء في التجارة بين بلاد البحار الجنوبية والعالم فكانوا يقومون بتمثيل (ضباط الارتباط) في ميادين التجارة العالمية » .[5]

وما اكثر ما ادخره الشعر الجاهلي من معلومات عن البيئة الجغرافية لجزيرة العرب ، حيث حفظ لنا الكثير من أسماء الاعلام الجغرافية من أودية وجبال وآبار وتلال ومعالم ورسوم . ولم يقتصر الأمر على سكان البادية ، فسكان الحضر كاهل مكة ويثرب (المدينة) والطائف تجاوز علمهم البلدان الى ما وراء الجزيرة كالحبشة والشام والعراق . والأعلام الجغرافية التي أوردها الشعراء تمثل مادة لا تقدر بثمن كما يقول (فستنفلد) . فقد استقى منهم البكري وياقوت وغيرهما مادة جغرافية في غاية الدقة والأهمية . لذلك لم يكن غريباً ان نجد الجغرافية من بين الفنون التي اهتم بها اللغويون . فقد كان الاصمعي (٢٢٣ هـ / ٨٢٨ م) ، وهو من علماء اللغة ، من « العارفين بجغرافية بلاد العرب معرفة المدقق الخبير ، وظلت هذه الصلة بين الجغرافية واللغة قائمة حتى عصر متأخر ، نجدها في معجم البلدان لياقوت الحموي ، وهو من كتب الجغرافية ، ونجدها في تاج العروس للزبيدي ، وهو من معاجم اللغة » .[6]

وفي القرن السابع الميلادي أعتبر القرآن الكريم أقدم وثيقة اسلامية احتوت بعض المعلومات الجغرافية على الرغم من قلتها ، كما هي قليلة في الحديث الشريف . وما جرت تسميته « بالتراث الاسطوري في الجغرافية » قليل جداً بينها . وتتأكد في القرآن بشكل خاص أهمية النجوم كهادٍ في ظلمات الليل .

وذكر بعض الباحثين ان القرآن اقتصر على ايراد عشرة أسماء لمواضع جغرافية جميعها داخل حدود جزيرة العرب (مكة ، المدينة ، بدر ، حنين ، الصفا ، المروة ، عرفات ، طريفا ،[7] سيناء ، ووادي طوى القريب منها) كما أورد بعض من مساكن الامم البائدة . وخارج حدود الجزيرة العربية ورد ذكر (الارض المقدسة) فلسطين ومصر وبابل .[8] (شكل رقم ٢)

وتطلب الحج ، وهو ركن أساسي من أركان الاسلام ، معرفة كاملة بطرق القوافل الى مكة والمدينة ، وكان الحجاج المهتمون بتقديم البلدان يجمعون وهم في طريقهم الى الديار المقدسة كثيراً من المعلومات عن الاراضي التي يمرون بها . فضلًا عن تدوين

www.attaweel.com

ما يسمعوه من الحجاج الاخرين عن بلادهم . وخير من يمثل هذا اللون من الادب الجغرافي « رحلة ابن جبير » .

وبالاضافة الى عامل الحج ، لعبت التجارة والرحلة (لطلب العلم أو لاي غرض كان) دوراً بارزاً في ازدياد حركة الاتصال بينهم وبين البلدان المعروفة لهم آنئذٍ . وقد تعاظمت التجارة بعد ظهور الاسلام كثيراً حيث رأينا التجار المسلمين ينهضون الى أطراف الارض ، ينقلون البضائع ويشترون السلع . وقد شملت تجارتهم رقعة الدولة الاسلامية برمتها من الاندلس غرباً الى وادي السند وما وراء النهر شرقاً ، براً وبحراً . مما ساعد على إتساع المعلومات الجغرافية لدى العرب فشجعهم على تدوين اخبار أسفارهم وما شاهدوه في ترحالهم فوصفوا البلدان وحياة سكانها في المناطق التي مروا بها . ومن هنا ظهرت كتب الرحلات المعروفة مثل رحلة المسعودي والمقدسي والادريسي . أما رحالة البحر فاشهرهم سلمان التاجر وابن ماجد وسليمان المهري .

ومن شأن التوسع السياسي وانتشار رقعة الدولة نتيجة الفتوحات التي حملت العرب بعيداً عن حدود جزيرتهم الى مختلف الاقطار ان يحدث تغييراً شاملاً في تصورهم للعالم ، ويؤدي بلا ريب الى اتساع افقهم الجغرافي نتيجة التجربة المباشرة . وقد ساعدت المعلومات الجغرافية تلك الدولة الاسلامية في ادارة شؤونها وضبط خراجها ومعرفة طرقها وتحديد مسالكها وأبعادها وتنظيم تجارتها وبالتالي حفظ حقوق بيت المال وتنظيم طرق البريد ، فظهرت مصنفات لتلك الميادين . ومن بين هذه المصنفات ظهر لما يصح أن يسمى بـ(الجغرافية الادارية والسياسية)[٨] عن الفتوح والمغازي واخبارها . وهي تبدو واضحةً في كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة في اواسط القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) ، وفي كتاب « الخراج وصنعة الكتابة » لابن قدامة .

وقد خضع البريد الى تنظيم جيد في العهد الاموي مما استرعى اعداد رسوم تخطيطية لمختلف الطرق ، وقد وجد مثل هذه الرسوم في دواوين الحكومة واستغلها بعض مؤلفي العصر العباسي في وضع مؤلفات في هذا الميدان . أما طرق البريد فقد نصبت جانبها حجارة لتوضيح المسافات وكانت تبدأ من مركز الخلافة . وعثر على بعض هذه الحجارة بفلسطين ، واماكن اخرى ، ترجع الى عهد عبد الملك بن مردان قبل عام ٨٦ هـ (٧٠٥ م)[٩]

وجهاز البريد وما يتطلبه من شبكة للطرق والمواصلات كان دافعاً لتاليف عدة مصنفات تعالج هذه الناحية ، وهي كتب (المسالك والممالك) . وبين هذه المجموعة مؤلفات جغرافية شهيرة تحمل هذا العنوان : لابن خرداذبة والاصطخري ، وابن حوقل وغيرهم .

ويمثل العصر الذي يمتد الى منتصف القرن الثامن ميلاد بعض الانماط والصور التي بدأت تتشكل فيها بالتالي مصنفات جغرافية قائمة بذاتها وضمها علماء لغويون كانت تدور حول تصورات عرب الجاهلية عن الانواء واهتمامهم بالاماكن . كما ان هؤلاء العلماء مسؤولون عن ادخال نمط « الفضائل » في المؤلفات الجغرافية والتاريخية الذي يكاد يكون أطرف محاولة لصياغة التصورات الجغرافية في قالب أدبي . والى هذا العصر بالذات ترجع أولى اشارات عن ظهور مصورات جغرافية[٥] (خرائط) و جغرافية وصفية في المجالين الاداري والاقتصادي لا سيما في الاندلس عام ١٠٠ هـ/ ٧١٩ م ، أي في عهد عمر بن عبد العزيز .[١٠]

ورغم ان العرب وغيرهم من الامم قد عرفوا الشيء الكثير من المعلومات الجغرافية ، الا ان مفهوم كلمة (جغرافيا) لم يتبلور عندهم . ولم تتضح معالمه أو تتحدد أبعادهُ . فهذه الكلمة وكما جاءت على لسان (مارينوس الصوري) ثم على لسان (بطليموس) لم تكن في بداية استعمالها اكثر من رسم خارطة للارض تستند الى خطوط الطول ودوائر العرض توضع عليها المواضع الجغرافية الطبيعية والبشرية . وهي تدخل ضمن اختصاص الرياضيات ، بنظر بطليموس ، لذلك اتجه الى علم الفلك لانجازها .[١١] في حين يرى (سترابو) ان مهمة الجغرافي الاساسية هي في وصف البلدان وطبائعها ومناخها وغلاتها ومسالكها واقتصادياتها ومعتقداتها ، متجهاً بذلك نحو تحقيق المقاصد التي ينطوي عليها « الكوز موغرافيا » ، أي علم وصف الكون .

والجغرافية العربية بدأت بعد ظهور الاسلام تحمل طابعاً فلكياً نتيجة تعرف العرب على العلوم الهندية والفارسية أولاً ، ثم الاغريقية بعد ذلك حيث طغت شخصية بطليموس بمصنفاته الفلكية والجغرافية . ومن هنا ظهر الاتجاه الرياضي في الجغرافية . ومنذ ذلك الوقت سار تطور الجغرافية العربية من غير توقف الى آخر القرون الوسطى .

الجغرافية الرياضية

ان للمنهج الكمي المطبق في الدراسات الجغرافية الحديثة جذور قديمة في التراث الجغرافي العربي . فقد نشات الجغرافية نشأة رياضية ، وكان عدد كبير من الجغرافيين العرب القدامى لهم المام رياضي واسع . فقد طبقه بعضهم بارقامه ومعادلاته امثال الهمداني وابي الريحان البيروني والمراكشي ، وبعضهم بمنهجه واسلوبه مثل المقدسي وقدامة بن جعفر .[١٢] والجغرافية الرياضية عند العرب وإن تاثرت بالفكر اليوناني الفلكي ، الا ان تاثير هؤلاء لم يكن هو السابق من الناحية الزمنية . فقد تقدمه الهندي . واذا كان التاثير اليوناني أخذت كفته في الرجحان منذ بداية القرن التاسع الا ان المذهبين الاولين

www.attaweel.com

ظلا مع ذلك محتفظين ببعض اهميتهما مدة لا تقل عن القرنين حتى في المناطق البعيدة كالاندلس .

ففي أوائل ظهور الدولة العباسية ، قسم الجغرافيون العرب العالم الى (كشاور) تتكون من دوائر هندسية احداها في الوسط ، وتحيطها الدوائر الست الاخرى ، وظل هذا النظام معمولاً به عند الجغرافيين العرب الى أن تحولوا عنه وذلك باقتباسهم التقسيم الذي وضعه محمد بن موسى الخوارزمي (٢٣٢ هـ/ ٨٤٧ م) واضع اسس الجغرافية العربية ، ويقوم على أساس الاقاليم السبعة وفق الاحداثيات الجغرافية على شكل مستطيلات متوازية ، وممن أخذ بهذا النظام الفرغاني (٢٤٧ هـ/ ٨٦١ م) والبيروني (٤٤٢ هـ/ ١٠٥٠ م) وسهراب . ويمثل الخوارزمي ومن سار على منواله مدرسة جغرافية عربية بحتة لا صلة لها بالفرس او الهنود أو اليونانيين .[١٢]

وقد وضع بعض الجغرافيين العرب اسساً جديدة لتقسيمات اقليمية عربية أصيلة لا تقوم على اسس رياضية ، كما فعل الاقدمون ، وانما وفقاً لمشاعرهم القومية كما فعل الهمداني عندما وضع كتابه (صفة جزيرة العرب) وقسمها الى خمسة أقسام متخذاً من ظواهر سطحها اساساً لذلك ، أو وفقاً لحاجة الدولة الادارية مثلما قسم المقدسي الدولة العربية الاسلامية الى (١٤) اقليماً ادارياً .[١٣]

أما التاثير الهندي فيتمثل بصورة خاصة بادخال نظام « السندهند »[١٤] في الفلك العربي على اساس عدد من الرسائل الهندية في عهد المنصور متضمنةً جداول رياضية نتيت على الحسابات الفلكية وقوانين عملها وكيفية استعمالها ، وهي تدور حول تحركات الاجرام السماوية وطلوع ومغيب البروج . وقد حفظ لنا الفزاري (١٨٨هـ/ ٨٠٣ م) هذا النظام بعد أن أجرى عليه تعديلات واضافات جوهرية ، حيث قام بتحويل حساب التوقيت الهندي الى سنين قمرية كما هي مستعملة لدى العرب . أما اضافاته فقد بدت في الاتساع الملحوظ في المادة المتعلقة باراضي الخلافة . ونشاط « الفزاري » يمثل فاتحة عهد جديد في تطور الفلك والجغرافية الرياضية عند العرب . إذ كان هو و(ما شاءالله) أول من وضعا الاسطرلاب بين العرب .[١٥] وفيما بعد ظهر عدد آخر من أشهر فلكيي العرب مثل المنجم يحيى بن أبي المنصور (٢٣٠ هـ/ ٨٤٤م) والفرغاني والمروزي (٢٧٤ هـ/ ٨٨٧ م) وغيرهم .

ويبقى نظام « السندهند » سائداً حوالي نصف قرن أي الى عصر المامون حين بدأ يزحمه المذهب اليوناني الا أنه لم يختف مرة واحدة . فاكبر رياضي عصر المأمون وهو (الخوارزمي) قد وضع جداوله الفلكية « السندهند الصغير » اعتماداً على النظام الهندي . واستمر متداولاً الى آخر القرن الحادي عشر الميلادي . وفي أراضي الخلافة الغربية استمر الاهتمام به زمناً أطول . واحدى القواعد الجوهرية لهذا النظام ظلت حد ما مرتبطة بالمصنفات العربية على الدوام وامتد تاثيرها في بعض المجالات الى أيام كولومبس . اعني بذلك مسالة حساب خط الزوال أي خط منتصف النهار الذي كانت منه تقاس الاطوال عند العرب قبل مجيء النظام اليوناني وذلك من عند الارين Arine أو « قبة الارض » الموجودة في مكان ما من الشرق . وهي النقطة التي يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف النهار حيث تقع على أبعاد متساوية من الغرب والشرق والشمال والجنوب .[١٦]

ونظرية الارين هي المسؤولة عن ظهور الشكل الكمثري للارض عند كولومبس حيث يوجد مركز اخر للارض في نصف الكرة الغربي . وهكذا فإن النظرية الجغرافية العربية قد لعبت دوراً ما في كشف العالم الجديد . ومما يجدر ذكره ان كروية الارض كانت معروفة لدى العرب منذ عهد مبكر وقبل كوبر نيكوس بزمن بعيد . فقد ساق « الفرغاني » بعض البراهين المتداولة في الوقت الحاضر لاثبات استدارة الارض[١٧] كما يتضح من رواية ابن رستة (بين ٢٩٠و ٣٠٠ هـ/ ٩٠٣ و ٩١٣ م) .[١٨] ولم تجد النظريات الفلكية والجغرافية الهندية طريقها الى العرب مباشرة فحسب بل وصلتهم احياناً في ثوب آخر . مثل دخول مصطلح (الزيج) في الاستعمال العربي للجداول الفلكية ، ولعل زيج الشاه (زيج الملك) كان اكثر مصنفات المذهب الفلكي هذا ، انتشاراً في اللغة العربية . وقد أخذ المذهب اليوناني يضيق الخناق على المذهبين الآخرين في الجغرافية الرياضية العربية منذ بداية القرن التاسع ، واصبح هو السائد منذ منتصف القرن المذكور[١٩]

ومنذ عهدي الرشيد والمأمون نشطت حركة الترجمة في بيت الحكمة ، فانتشرت المؤلفات اليونانية واحتلت مكانة مرموقة بينها مؤلفات بطليموس الذي بدأ به عهد جديد في تاريخ الفلك والجغرافية عند العرب لا سيما مصنفيه الكبيرين وهما رسالة الفلك (الجامع) و(المدخل الى الجغرافيا) والمعروف باسم « جغرافيا » . والاول منها أخذ شكله العربي باسم « المجسطي » وقد ترك أثراً محموداً في تقدم الفلك والرياضيات لا بين العرب وحدهم بل وفي اوربا الوسيطة أيضاً .

وقد بلغت جهود الاغريق والرومان الجغرافية ذروتها في مؤلفي بطليموس ، المشار اليهما ، الا انه يمكن اعتبارهما أيضاً ختام الكشوف الجغرافية القديمة . إذ لم تعد تحوي الكتب الاغريقية والرومانية معلومات جديدة ، فاخذت الاعمال الجغرافية والكارتوغرافية تتقهقر في عصر الرومان بحيث ساد الجمود والخمول قروناً حتى ظهر العرب على مسرح الاحداث ، الذين أعتبروا ورثة الثقافة الهيلينية التي مهدت لها السبيل

www.attaweel.com

فتوح الاسكندر في أول الامر تم انتشرت فيما بعد في أرجاء الاقاليم الشرقية من الامبراطورية الرومانية.[١٩] لهذا أخذ العرب على عاتقهم بعد مرور ستة قرون من الزمن احياء دراسات بطليموس ومناقشتها من جديد ثم بناء النهضة العلمية العربية الجديدة.

وأبرز عمل قام به الجغرافيون العرب في هذا المجال هو قيام الخوارزمي، اكبر رياضي النصف الاول من القرن التاسع الميلادي، بترجمة مصلحة معدلة لرسالة بطليموس في الجغرافية[٢٠] ولعلها تعد من أقدم الترجمات. ويمكن اعتبارها في الوقت ذاته أول رسالة أصيلة في الجغرافية الرياضية عند العرب وشاملة لجميع العالم المعروف لهم انذاك.

ومع ان مصنفات بطليموس لعبت دوراً رئيساً في تطوير الادب الجغرافي العربي لكن العرب في هذا العصر بدأوا يجمعون بين الاستيعاب النظري للعلوم اليونانية والتطبيق العملي لنظرياتها في ابحاثهم المستقلة. فقد وضعوا جداولهم الفلكية المستقلة على اساس المراجعة النقدية لنتائج السابقين لهم في هذا المضمار، ورسموا خرائط لا تقل جودةً عن النماذج اليونانية.

فمن ابتكاراتهم أنهم أجروا تجربة لحساب خط منتصف النهار وقياس محيط الارض سنة ٨٢٧ م في زمن المامون تحت اشراف ابناء موسى بن شاكر (محمد، احمد، حسن). وتقوم حساباتهم على اساس قياس درجة واحدة على خط الزوال ثم ضرب الناتج في ٣٦٠. وقد بلغت الدرجة بموجب التجربة العربية المأمونية ٥٦ ميلاً وثلثي الميل.[٢١] وهو طول لا يختلف عن النتائج التي أسفرت عنها احدث الدراسات بحيث ان الخطأ في هذا المقياس يقل عن الكيلومتر الواحد.[٢٢] مما يمكن أن نعزوه الى نقص الاجهزة المستعملة في القرن التاسع. وتعتبر التجربة العربية المذكورة محاولة جريئة اعتبرها العلماء « من أجل آثار العرب في ميدان الفلكيات ».[٢٣] وهي تقف في حد ذاتها دليلاً على ما بلغته الحضارة العربية من تقدم علمي كبير وسريع الخطى. مما جعلها تحتل مكانة في تاريخ الجغرافية والرياضيات كما يقول كراتشكوفسكي.[٢٤]

ومما يجدر ذكره أن أبا الريحان البيروني قد ابتكر طريقة جديدة لاستخراج محيط الارض، وقد جاءت هذه الطريقة في أخر كتاب « الاسطرلاب ». ويعترف « نيللينو » بأن قياساته تلك تعد من الاعمال العلمية المأثورة للعرب. هذا وقد ألف أبو الريحان عشرة مؤلفات في الجغرافية الرياضية وأربعة في هيئة الارض وقام برسم خرائط فلكية بطريقة تشبه ما نشره (بانرنو) فيما بعد. وقد استفاد ياقوت الحموي من كتاب أبي الريحان « التفهيم لاوائل صناعة التنجيم » كثيراً حيث احتوى هذا الكتاب على مواضيع فلكية وجغرافية عديدة.[٢٥]

وفي عهد المأمون تم انشاء مرصدين احدهما في حي الشماسية ببغداد سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م، والاخر على جبل قاسيون بدمشق سنة ٢١٧ هـ / ٨٣٢ م. وبفضل هذين المرصدين تم تحديد الموقع الجغرافي لجميع النقاط المهمة من جديد. أي ضبط عرضها وأطوالها. وهو ما عُرف باسم « الزيج المأموني الممتحن ». كما قام الفلكيون أبناء موسى بن شاكر بقياس عرض محله باب الطاق ببغداد فبلغ ٣٣ درجة و ٢٠ دقيقة شمالاً. وهو ما ينطبق تماماً على واقع الحال بعد اضافة عشر ثوانٍ تقريباً[٢٦] وبواسطة المرصدين المذكورين عُيّن انحراف سمت الشمس فبلغ ٢٣ درجة و ٣٣ دقيقة و ٥٢ ثانية، أي ما يعادل الرقم الحاضر. كما نشا عن رصدهم للاعتدال الشمس تعيينهم مدة السنة بالضبط. ومن أشهر علماء الفلك في تلك الفترة « البتاني » (٣١٧ هـ / ٩٢٩ م) حيث كان له من الشان مالبطليموس عند الاغريق.[٢٧]

وقد اخذ الغرب فكرة مبكرة عن « الزيج المأموني » بفضل ترجمة رسالة الفرغاني مرتين الى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر، كما ترجمت في القرن الثالث عشر الى لغات اوربية اخرى.

وبالاضافة الى ما سبق يقدم لنا هذا العصر أثراً جغرافياً ممتازاً هو ما يسمى بـ(الصورة المأمونية) ولم تصلنا منها آثار مباشرة. وقد رآها المسعودي في القرن العاشر حينما قال: « ورأيتُ ... الصورة المأمونية ... وهي أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرهما ».[٢٨]

ولا يزال الإشكال قائماً حول كتاب يُعزى دون مبرر الى بطليموس، إذ نشا في محيط لا علاقلا له البتة ببطليموس، وهو « كتاب الملحمة » ويقصد به هنا (التنبؤات) وذلك لعلاقته بالتنجيم. وهذا الكتاب هو المصدر الأساس لياقوت الحموي في معجمه الجغرافي دون جميع الزيجات الاخرى، وعليه بنى تحديده لاطوال وعروض المدن واستخرج منه وقائع تنجيمية مختلفة. وقد بلغت استشهادات ياقوت به السبعين تقريباً.[٢٩]

الجغرافية الوصفية

بعد ظهور الجغرافية الرياضية عند العرب في القرن التاسع، بدأت تتشكل منذ منتصف ذلك القرن الجغرافية الوصفية ببطء ملحوظ في بداية الأمر، حيث اهتم بها اللغويون أو طبقة اهل الادب كما يسميهم ياقوت، وقد أخضع هؤلاء المادة لمطالبهم. إذ أن التخصص في الجغرافية لم يعرف الا في عصر متأخر للغاية، وان كثيراً ممن كتب عن جغرافية ديار الاسلام لم يكن جغرافياً بالحرفة. أما المواضيع التي تناولتها الجغرافية الوصفية فكانت تشمل وصف البلدان والمدن والآثار والجبال والسكان وما اليها لغرض تسهيل تحصيل ضريبة

www.attaweel.com

الجزية والخراج وتمشية امور الدولة الاخرى .

وفي الفترة المبكرة لظهور الجغرافية الوصفية ، لم يكن التسلسل التاريخي لتاليف المصنفات المختلفة لبعض أنماطها واضحاً على الدوام . الا انه ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع أخذت الجغرافية الوصفية تتخذ انماطاً ثابتة حيث انفسح المجال للغويين بصورة خاصة ليؤلفوا فيها . ويمكن عموماً تصنيف المؤلفات التي تناولتها الجغرافية الوصفية بما يلي :

١ ـ كتب الانواء والفضائل والعجائب .
٢ ـ المؤلفات الخاصة بالمسالك والبلدان .
٣ ـ المصنفات الطوبوغرافية .
٤ ـ الجغرافية الاقليمية .
٥ ـ كتب الرحلات (البرية والبحرية) .

١ ـ كتب الانواء والفضائل والعجائب :

عنى العرب بعلم الانواء الذي يبحث في صنوف الطقس وفي الظواهر الطبيعية الاخرى كالرياح والامطار والسحاب وما يتصل بذلك من معرفة حركات النجوم والكواكب وربطها بالمواسم وبالحيوان وبالنبات .[٢٩] واستمرت سلسلة رسائل الانواء في الصدور طيلة القرنين التاسع والعاشر ، ويعتبر مصنف الدينوري (٢٨٢ هـ/ ٨٩٥ م) أبعدها صيتاً . وفي اوائل القرن التاسع وضع « النضر بن شميل » (٢٠٣ هـ/ ٨١٨ م) ، وهو من أصحاب كتب الانواء ، موسوعة في الحياة البدوية سماها « كتاب الصفات » ومن بين ما تحويه مادة متنوعة من الجغرافية الطبيعية والاثنوغرافيا (الانثروبولوجيا الوصفية) والجغرافية الحيوية .[٣٠] ومن كتب الانواء الاخرى مصنف « مؤرج السدوسي » (١٩٥ هـ/ ٨١٠ م) ، وكتاب ابن قتيبة (٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م) . وقد عدد ابن النديم في الفهرست ١٥ كتاباً في الانواء .[٣١]

والف اللغويون أيضاً كتباً في الفضائل أو الخصائص التي ازدهرت في العصر الاموي ، حيث تتناول صفات ومحاسن الحواضر الكبرى (مثل دمشق والبصرة) ، وقد ساهم الجاحظ فيما كتبه بهذا النمط من المصنفات ، وتمت تأثير الموضوعات الاسطورية والرغبة في الامتاع والتشويق تحولت بعض مواضيع الجغرافية الوصفية الى كتب العجائب ، مثل « كتاب العجائب الاربعة » لهشام بن محمد بن السايب بن بشير الذي يعتبر أول كتاب في الموضوعات الجغرافية العامة في الاسلام .

٢ ـ المؤلفات الخاصة بالمسالك والبلدان :

أصبح للجغرافية الوصفية ضرورة عملية بعد اتساع رقعة الدولة الاسلامية ، مما يتطلب معرفة الطرق التي تربط بين اصقاع هذه الدولة الفسيحة . وكان لابد من معرفة السكك والمسافات بين الاماكن ، فأدى الى ظهور « كتب المسالك » مثل كتاب « المسالك والممالك » للمروزي . ويعد من أقدم مصنفات المسالك إن لم يكن أقدمها ، ذكره ابن النديم في الفهرست وياقوت في المعجم . ومن المؤلفات القديمة أيضاً في هذا المجال كتاب ابن خرداذبة الذي يحمل نفس العنوان . وقد كان مؤلفه من متولي البريد والخبر في الجبل بفارس ، وهو أول كتاب يصل الينا في هذا الاختصاص . ويبحث في طرق المواصلات بين جميع المدن الاسلامية المعروفة في عصره ، وفيه ذكر للانتاج الزراعي والضرائب والخراج ، وهو وليد الحاجة الادارية . وترى المؤلف يشرح مضمون كتابه فيقول أنه يتناول « مسالك الارض وممالكها وصفتها وبعدها وقربها وعامرها وغامرها والمسير بين ذلك منها ... ورسوم طرقها وطسوقها ... »[٣٢] .

وظهرت عدة مصنفات تحمل نفس العنوان (المسالك والممالك) للسرخسي (٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م) ، وأخر للاصطخري (٣٤٦ هـ/ ٩٥٧ م) ، وغيره لقدامة بن جعفر (بين ٣١٠ و ٣٢٠ هـ/ ٩٣٢ م) بعنوان « كتاب الخراج وصنعة الكتابة » ، حيث يبين الطرق والمسافات وديوان البريد فضلاً عن قيمة جباية الدولة ، وقد ألفه في عهد المكتفي بالله في أواخر القرن الثالث الهجري عندما قلده منصب صاحب البريد . وقد وصل الينا القسم الخاص بالخراج ، لهذا ألحق بكتاب ابن خرداذبة . كما ألف الوراق (٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ م) كتاباً في المسالك والممالك ، وكذلك البكري (٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م) والجيهاني وغيرهم . وتطلبت السياسة والادارة والتجارة وما اليها وصفاً دقيقاً للامكنة والبقاع ، فاتسع وبصورة تدريجية وصف المدن والاقطار من طراز الفضائل ليتحول الى « كتب البلدان » ، وأقدمها مصنفي هشام الكلبي (حوالي ٢٠٦ هـ/ ٨٢٠ م) « البلدان الكبير والبلدان الصغير » ، وهي أول الكتب التي ظهرت في أخبار البلدان . وظهر بعدها « كتاب البلدان » لليعقوبي (٢٨٤ هـ/ ٨٩٧ م) الذي وضعه سنة ٢٧٨ هـ . ويعود اليه الفضل في تسمية علم الجغرافية (بعلم أخبار البلدان) وفي ظهور « جغرافية المدن » . إذ ان من بين ما يتميز به اليعقوبي ولعه بالاحصائيات والوصف الطوبوغرافي للمدن لا سيما بغداد وسامراء[٣٣] .

ومن المؤلفات البلدانية ، الاخرى مصنف البلاذري (٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م) « فتوح البلدان » ، ومصنف ابن الفقيه الهمداني (حوالي ٢٩٠ هـ/ ٩٠٣ م) « مختصر كتاب البلدان » وابن رستة « الاعلاق النفيسة » .

www.attaweel.com

٣ ـ المصنفات الطوبوغرافية

اهتمت الجغرافية الوصفية ، زيادةً على ما تقدم ، بنوع من المؤلفات التاريخية الجغرافية انصبت الدراسة فيها على مدن مفردة في نواحي شتى من العالم الاسلامي وتمدنا بالمعلومات الجغرافية عنها ، أطلق عليها اسم « المصنفات الطوبوغرافية » وهي خاصة بالمدن والخطط ، ومن اشهر تلك المؤلفات ما كتبه الخطيب البغدادي (٤٦٣ هـ/ ١٠٧١ م) عن مدينة بغداد ، ووصف ابن جامع للاسكندرية ، وعبد اللطيف عن مصر ، وهذه تعتبر من أهم الكتب الطوبوغرافية في العصور الوسطى .

وقد اكتسب الادب الجغرافي الطوبوغرافي انتشاراً واسعاً في مصر بصورة خاصة حيث يمكننا أن نتتبع منذ النصف الثاني للقرن التاسع ميلاد نوع فريد مستقل من المصنفات من الطراز المعروف باسم الخطط ، اي وصف الاحياء والنواحي ، وقد ظل مزدهراً بمصر الى القرن التاسع عشر . وأول مؤلف يصل الينا من هذا النوع « فتوح مصر » لابن عبد الحكم (٢٥٧ هـ/ ٨٧١ م) وعلى غراره جاءت مصنفات المقريزي (٨٤٥ هـ/ ١٤٤٢ م) الذي اهتم بالجانب الاجتماعي والديموغرافي للتاريخ ، وكذلك السيوطي ، كما اهتم به ياقوت في معجمه .

٤ ـ الجغرافية الاقليمية :

تناولت الجغرافية الوصفية بين ما تناولته من فروع الجغرافية ، فرع أطلق عليه اسم « الجغرافية الاقليمية » . وقد تناولها اللغويون الذين انصرفوا انصرافاً تاماً الى الجزيرة العربية . وقد لاحظ ياقوت الحموي بالكثير من الدقة ، وذلك عند تحليله لمصادر معجمه ، ان الكتب التي صنفت في اسماء الاماكن صنفان :[٣٢] أحدهما قُصد به ذكر الاماكن العربية والمنازل البدوية حيث ينسبهم ياقوت الى « طبقة أهل الادب » أي اللغويون ـ ويدخل الصنف الآخر تحت باب كتب البلدان والمسالك ـ وجُل قصدهم شرح الالفاظ وتحديد الاماكن ، وقد شذ بعضهم عن ذلك كهشام الكلبي حيث انفرد بالتاليف الجغرافي الصرف زيادةً على مؤلفاته في اللغة والادب والتاريخ .[٣٣] الا ان الكلبي يجب أن يحتل مكانة اولى في التراث الجغرافي اللغوي ، فهو خبير بالجاهلية وصاحب كتاب الاصنام ، وجمهرة الانساب . والاعتراف به كحجة يؤكده ياقوت ، فقد أورد إسمه (٣٥٠) مرة . ويعتبره المصدر الاساس عن جزيرة العرب ، على الرغم من أنه أول مؤلف بالنسبة لعصره يكتب في موضوعات جغرافية عامة تتجاوز نطاق جزيرة العرب الى خارجها مثل الكوفة والرها والنهروان والمخرّم قرب بغداد ، كما ظهر من الاقتباسات التي ينقلها عنه ياقوت .

ومن مصنفات الجغرافية الاقليمية الاخرى نذكر كتاب « مكة والحرم » لابي عبيدة (٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م) ، وكتاب « الجبال والاودية » لابن حمدوية (٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م) ، وكتاب « المناهل والقرى » لأبي سعيد السكري (٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م) ، و « كتاب جزيرة العرب » للاصمعي وتلميذه سعدان بن المبارك (٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م) صاحب كتاب « الارضين والمياه والجبال والبحار » وينحصر بحثه ضمن نطاق جزيرة العرب أيضاً . كما ألف أبو زيد الانصاري (٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م) كتاب « المياه »[٣٤] الا ان اعظم مصنفات الجغرافية الاقليمية هو « صفة جزيرة العرب » للهمداني (٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ م) الذي يمتاز على جميع مصنفات القرنين التاسع والعاشر ولا يبزه في القرن العاشر الا مصنف البيروني « الهند » .

وكان مفهوم الاقليم يقوم على أساس تقسيم الارض حسب درجات العرض على صفة مناطق تمتد موازيةً لخط الاستواء ، وبهذا قُسمتْ الارض الى سبعة اقاليم . في حين ان للاقليم مفهوم جديد عند الهمداني كما سبق القول ، كذلك عند الاصطخري ويقوم على أساس تقسيم العالم الاسلامي الى عشرين اقليماً ، وخص كل واحد منها بخريطة (صورة) حددها بما كانت عليه في أواسط القرن العاشر الميلادي . لهذا يُعد الاصطخري على رأس مدرسة جغرافية جديدة تختلف عما سبقتها من مدارس .[٣٥]

والاصطخري في مؤلفه « المسالك والممالك » قد حدد نفسه بمنهج واضح حينما تحدث عن اقاليم الارض في بلاد الاسلام بقوله : « ... ولم أقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض ، بل جعلتُ كل قطعة أفردتها مفردة مصورة ، تحكي موضع ذلك الاقليم ، ثم ذكرتُ مايحيط به من الاماكن ... فاكتفيت ببيان موقع كل اقليم ليعرف مكامه ، ثم افردتُ لكل اقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينتُ فيها شكل ذلك الاقليم وما يقع فيه من المدن وسائر ما يحتاج الى علمه ... »[٣٧]

وبهذا حدد الاصطخري نفسه بأن كتابه في الجغرافية الاقليمية وليس في الجغرافية العامة التي كتب فيها معظم من تقدمه . ومفهوم الاقليم الجغرافي واضح في ذهنه ، فهو لا يعني تلك الاقاليم السبعة التي اصطلح عليها القدماء ، وليس الاقليم منطقة من الارض تحكمها دولة بعينها .[٣٨] وانما هو منطقة جغرافية ذات مظاهر طبيعية تكسبها شخصية مستقلة متميزة . ولذلك فهو يميز بين خراسان وما وراء النهر مع انهما تحت حكم السامانيين ، ويجعل كلّا منهما اقليماً قائماً بذاته . ويعلل بين آونةٍ واخرى السبب في أنه ضم جزءً الى هذا الاقليم أو ذاك ، فيقول مثلاً : « فاما الريّ فإنا ضممناه الى الديلم وإن كانت قائمة بنفسها ، لأن اتصالها بها اتصال واحد وليس بينهما حاجز يستحق به الانفراد عنها ... »[٣٩] ومن قوله أيضاً

www.attaweel.com

في ما وراء النهر : « وقد كان في التقدير ان نصور خوارزم في صورة خراسان ونصفها في صورة ما وراء النهر ، غير ان الغرض في هذا الكتاب معرفة هذه الاقاليم ومدنها ، فاخترتُ ان تكون خوارزم مجموعة في الصورة وجعلتها في صورة ما وراء النهر فابلغ بذلك غرضي من غير تكرار في الصورتين » .[٤٠]

ويجعل الاصطخري كلًا من بلاد العرب ، ومصر ، والمغرب ، وبحر الروم ، وبحر الخزر أقاليم قائمة بذاتها ، وذلك لان لكل منها ظروفاً طبيعية تميزها عن غيرها وبهذا فإن الاصطخري لا يقبل التقسيم الاداري الذي دعت اليه ظروف غير جغرافية ، وانما يجعل المنطقة وحدة ولا يجزئها إلا اذا جزأتها الطبيعة ، وجاء المقدسي بعد الاصطخري فلم ينس مفهوم الاقليم عندما تحدث عن بلده فلسطين . وقسم المقدسي مملكة الاسلام الى اربعة عشر اقليماً ، وفي هذا يقول : « وأفردنا اقاليم العجم عن اقاليم العرب ثم فصلنا كور كل اقليم ونصبنا أمصارها وذكرنا قصباتها ورتبنا مدنها وأجنادها بعدما مثلناها ورسمنا حدودها وخططها وحرّرنا طرقها المعروفة ... »[٤١] بعد ان وضع في خرائطه لكل ظاهرة لونها ليسهل ادراكها وفهمها .

واذا كانت الجغرافية الاقليمية قد اهتم بها اللغويون (اهل الادب) ، فإن كبار العلماء لم يحصروا نشاطهم في حدود ضيقة كاللغويين . فعالم كالجاحظ (٢٥٥ هـ / ٨٦٩ م) صنف كتاب « الحيوان » ، وهو كتاب جامع يحفل بالكثير من المعلومات (جغرافية حيوية ، اثنوغرافيا ، انثروبولوجيا)[٥] على الرغم من غلبة الموضوعات الادبية عليه . وسار على منواله ابن الفقيه الهمداني الذي اعتمد على ابن خرداذبه ونقل حرفياً على ما كتبه حول صفة الارض والاقاليم السبعة .[٤٢]

وتم الكشف في الآونة الاخيرة عن مصنف للجاحظ يقف دليلًا على اهتمامه الواسع بالجغرافية . ويمكن اعتباره أول محاولة للعرب في الجغرافية الاقتصادية ، أو على وجه الدقة « جغرافية التجارة » ، أعني بذلك الرسالة الصغيرة المعروفة باسم « التبصر بالتجارة » . وهي تعالج السلع التجارية وأسعارها والمستورد منها .[٤٣]

٥ ـ كتب الرحلات :

ان ميول العرب للرحلة في طلب العلم وتقصي الاخبار ومغامراتهم البحرية بقصد التجارة أو غيرها كانت تحتل حيزاً مهماً في التراث الثقافي العربي . وكثيراً ما كانت هذه الرحلات تلاقي تشجيعاً رسمياً ودعماً مالياً في سبيل تحقيق اغراضها في الاطلاع على شؤون البلاد النائية وتوثيق الصلات التجارية معها .[٤٤] وتدل الشواهد بان العرب قد أسسوا مركزاً لهم في ميناء كانتون الصيني منذ أوائل القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) . واستمرار الصلات التجارية معها مهدت السبيل لرحلة التجار العرب الاخرين الى الهند والصين فيما بعد .

وقد ثبتت الصورة النهائية لقصص الرحلات في القرن التاسع الميلادي ، واقدم رحلات هذا القرن تلك الحكايات والاخبار التي رواها ابن خرداذبة عن سلام الترجمان ، ومحمد بن موسى المنجم ، وأبو زيد السيرافي عن سليمان التاجر ، وابن وهب ، وما رواه اليعقوبي وخبّر به عن رحلاته التي أورد فيها وصفاً مفصلًا عن البلدان التي زارها ومظاهرها الطبيعية ونواحيها البشرية . مما ساعد على ظهور كتب الرحلات في القرن التاسع التي استمرت طيلة القرون الخمسة التالية .[٤٥]

ويعتبر القرن العاشر الميلادي من أحفل القرون باخبار الرحالة العرب ، إذ يمكن الاستنتاج انهم وصلوا شواطىء امريكا من خلال رواية الادريسي . وتوغلوا في بلاد الروس ، وتنقلوا في العالم الاسلامي من شرقه الى غربه . وتحدثوا عما صادفوه من التجارب والمشاهدات خلال رحلاتهم في مؤلفاتهم . ولم يزل بعضها يعتبر حتى اليوم دليل المؤرخ والجغرافي والباحث ، ومرجعاً مهماً عن البلدان التي زاروها .[٤٦] وتعتبر رحلة ابن جبير (٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) من الناحية الفنية ذروة ما بلغه نمط الرحلة في الادب العربي . وقد اختتم ابن بطوطة (٧٧٠هـ / ١٣٦٨ م) سلسلة الرحلات العربية ذات الاهمية العالمية بعد أن أمضى ٢٨ عاماً في رحلته وقطع خلالها ما يعادل (١٢٠) ألف كيلومتر .[٤٧]

أما دوافع تلك الرحلات فيمكن ايجازها فيما يأتي :

أ ـ في سبيل الكشف والمغامرة كرحلة الفتية المغرورين (أي المخاطرين) حيث قام ثمانية شبان أبناء عمومة برحلة من لشبونة في بحر الظلمات (المحيط الاطلسي) كما رواها الادريسي . وعرب الاندلس رغم تخوفهم من البحر المذكور ، قاموا بعدة محاولات للكشف فيه خلال القرن التاسع كما أشار الى ذلك المسعودي .[٤٨] وأقدم « محمد بن قو » سلطان مالي خلال القرن الرابع عشر الميلادي على رحلة جريئة في المحيط الاطلسي حاول خلالها أن يصل الى الشاطىء الغربي لبحر اللجّي أي بحر الظلمات ، كما رواها القلقشندي في صبح الاعشى .[٤٩]

ب ـ في سبيل الرزق والمعرفة وحب الاستطلاع كرحلة ابن حوقل والمسعودي والمقدسي . فقد أتحفنا المسعودي (٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م) ، الذي قضى ٢٥ سنة من حياته في التطواف ، بمشاهداته عن بدائع الامم وخواص الاقاليم وتفسير بعض ظاهرات الجغرافية الطبيعية مثل كروية الارض وغلافها الغازي والرياح الموسمية والمواقيت الصالحة للملاحة . ومن الغريب أن توجد لديه فكرة وحدة الشعوب السامية قبل عهد طويل من ظهورها كنظرية علمية في اوربا . الا ان المسعودي شان الغالبية من مؤلفي عصره يعنى بالتسجيل اكثر مما يعني بتحقيق ما يسجل .

www.attaweel.com

ولرحلة المقدسي (حوالي ٣٩٠ هـ/ ١٠٠٠ م) قيمة جغرافية عالية تجعلها وثيقة يستند عليها الجغرافي الذي يبغي معلومات عن البلدان التي وصلها المقدسي البشاري فيما يخص فروع الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية والعمرانية . واقترب في كثير من ملاحظاته لفهم الجغرافية على الطريقة الحديثة واستخدامها كاداة للتثقيف العام .

أما ابن حوقل (٣٦٧ هـ/ ٩٧٨ م) فقد ذكر كل ما شاهده من ظواهر في كتابه « صورة الارض » الذي يعد موسوعة جغرافية ، لأن ابن حوقل لم يدع صغيرة ولا كبيرة الا وقد تطرق اليها . فهو يقول : « ... وقد جعلتُ لكل قطعة أفردتُها تصويراً وشكلًا يحكي موضوع ذلك الاقليم ... واعانني عليه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني ... » .[٥٠]

ج ـ الاطلاع بمهمة رسمية كانت الدولة تكلفهم بها فيسافرون كرسل للخليفة أو كسفراء له فوق العادة بلغة عصرنا ، فساعدت على توسيع المعلومات الجغرافية عن البلاد الاجنبية . وأقدم بعثة اسلامية أرسلتْ الى الصين كانت في زمن الخليفة عثمان (ر) سنة ٣١هـ/ ٦٥١ م . وارسلت بعثات اخرى الى الصين ، منها اثنتان : الاولى أوفدها الخليفة ابو جعفر المنصور (١٤٥ ـ ١٥٨ هـ/ ٧٦٢ ـ ٧٧٥ م) ، والثانية أرسلها الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/ ٧٨٦ ـ ٨٠٩ م) .[٥١]

ولعبت بعض الشخصيات العربية دور الدبلوماسي الناجح مثل « يحيى بن الحكم البكري « الملقب بالغزال (٢٥٠ هـ/ ٨٦٤ م) ، حيث لعب دور الدبلوماسي مرتين ، وهو على معرفة بعدد من اللغات . وكان أمير قرطبة عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ ـ ٢٣٨ هـ/ ٨٢١ ـ ٨٥٢ م) قد وجهه الى بلاد الشمال لمفاوضة النورمان سنة ٢٣٠ هـ/ ٨٤٤ م والذين سبق وان اغاروا على الاندلس . ويبدو أنه قد زار قبل هذا القسطنطينية ضمن سفارة أوفدت لعقد معاهدة صلح مع الامبراطور (تيوفيل) .[٥٢]

ولعب دور الدبلوماسي أيضاً رسول الخليفة المقتدر الى بلاد البلغار وبلاد الخزر (احمد بن فضلان) سنة ٣٠٩ هـ/ ٩٢١ م مع وفد لتفقيه البلغار امور الدين الاسلامي بعد دخولهم فيه ، فصنف رسالة في وصف رحلته عُرفتْ باسمه ذكر فيها ما شاهده في بلاد البلغار موضحاً فيها حياة السكان وعاداتهم وحضارتهم وتجارتهم . وتضم هذه الرحلة أقدم المعلومات وأوثقها عن البلغار والروس وأهل الخزر .[٥٣] وأعقب تلك الرحلة زيارة التجار العرب لتلك الاصقاع وبسط نطاق نشاطهم على أرجائها وبخاصةً في جنوب روسيا وبولندا ، ولم تغفل الدول الاسكندنافية من ملاحظاتهم .[٥٤]

كما لعب دور الدبلوماسي « أبو دلف مسعر بن مهلهل الخزرجي » رسول الامير الساماني نصر بن أحمد الى الصين في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ، و« ابن سليم الاسواني » مبعوث الخليفة المعز لدين الله الفاطمي الى ملك النوبة في السودان .[٥٥]

وبالاضافة الى المعلومات الجغرافية التي وصلتنا عن طريق الدبلومسيين ، فإن الاسرى قد لعبوا دورهم أيضاً في توسيع مدارك العرب عن أمصار الغرب حيث أثروا الجغرافية العربيّ بمعلومات مفصلة ودقيقة عن المناطق التي بقوا فيها . ومن أشهر هؤلاء « مسلم الجزمي » الذي أُطلق سراحه من أسر البيزنطيين (ربما سنة ٢٣١ هـ/ ٨٤٥ م) . وتعد مصنفاته مصدراً مهماً للغاية في معرفة العرب بشؤون الدولة البيزنطية ، وقدمتْ فيه معلومات مفصلة عن الصقالبة وجيرانهم . ويعد نصف قرن (٢٨٨ هـ/ ٩٠٠ م) قدم لنا اسير آخر من أسرى البيزنطيين هو « هارون بن يحيى » معلومات مهمة لا سيما وصفه الجيد للقسطنطينية .[٥٦]

د ـ الرحلة في سبيل التجارة :

لقد نشطت الرحلة في سبيل التجارة بالطريق البحري مع الهند والصين حيث وصل العرب من طائفة الاباضية الى الصين ويمكن اعتبارهم ممهدي الطريق للتاجر سليمان ولابن وهب . والى نفس العهد المبكر الذي يسبق القرن التاسع ترجع اول معرفة للعرب بالطريق البري الذي يخترق آسيا الوسطى الى الصين اعتماداً على الوصف الذي يقدمه تميم بن بحر المطوعي ، ويعتبر ابن خرداذبة اول جغرافي عربي يحفظ لنا وصف الطريق البري الى الصين .[٥٧]

وترجع قصص رحلات التاجر سليمان الى عام ٢٣٧ هـ/ ٨٥١ م ، وقد سافر مراراً بقصد التجارة الى الهند والصين ، ويصف لنا الطريق بدرجة من الدقة مكنت (فيان) من تتبعه على الخرائط الحديثة . كما ترك لنا سليمان وصفاً للسواحل والجزر والموانىء والمدن وسكانها والمحاصيل وسلع التجارة . وتعد رحلته مستند مهم لفهم المعارف البحرية في القرون الوسطى ، وعن طريقها دخلت اقاليم الهند والصين في معارف الجغرافية العربية . كما أنه أول مؤلف غير صيني يومىء الى الشاي .

الجغرافية الطبيعية

على الرغم من اهتمام الفكر الجغرافي بالجغرافية الرياضية والوصفية بمختلف فروعها ، الا ان الجغرافيين العرب لم ينسوا ظواهر الجغرافية الطبيعية فيما كتبوه وان لم يصنفوا فيها بصورة مستقلة الا قليلًا كابي زيد الانصاري صاحب كتاب المطر . وقد تناولوا بعض المظاهر الطبيعية ضمن الجغرافية الفلكية وبعضها الآخر ضمن الجغرافية الوصفية .

www.attaweel.com

فمن بين ما تضمنته مؤلفاتهم من ظواهر طبيعية ما أشار اليه البيروني من تفسير لتكوين سهل هندستان فذكر ان مكانه كان قاع بحر ملأته الترسبات الطموية ، وهو تفسير قريب من الفكرة الحديثة . وورد في كتابه « تحديد نهايات الاماكن لتصحيح مسافات المساكن » آراء في كيفية تكوين القشرة الارضية . وله آراء في العصور الجيولوجية ، وصنف عدة مؤلفات على قدم الارض وما اعتراها من ثورات بركانية وزلازل وتعرية .[٥٨]

والاصطخري هو الآخر لم يغفل الناحية الطبيعية من الجغرافية فيما كتبه فالعالم عنده قسمان . شمالي وجنوبي والحد الفاصل بينهما هو ما يقرب من خط عرض ٢٥ ° شمالا . والاقاليم التي تقع الى شمال هذا الخط أميل الى البرودة . وسكانها بيض البشرة وتزداد البشرة بياضاً كلما أوغلنا نحو الشمال . أما الى جنوبه فبلاد حارة ، أهلها سود البشرة ، ويزدادون سواداً كلما ابتعدوا الى الجنوب . وتقسيم الاصطخري هذا فيه من الصحة الشيء الكثير .[٥٩]

كما وردت آراء طريفة في (رسائل اخوان الصفا) في مجال الجغرافية الطبيعية . فقد لاحظوا ارتفاع حرارة الغلاف الجوي نتيجةً لانعكاس أشعة الشمس على سطح الارض . كما لاحظوا وجود التغير التدريجي في موضع كل من اليابس والماء ، وتثبتوا أيضاً من أصل المنابع والأنهار .[٦٠]

واحتوى كتاب ابو الفدا « تقويم البلدان » بين ما احتواه معلومات في الجغرافية الطبيعية ، ونقل نفس الشيء عن « مروج الذهب » للمسعودي ، وربط المقدسي بين الظروف الطبيعية والانتاج الزراعي . كما ان للقلقشندي اهتمامات بالجغرافية الطبيعية ولكنه يقتصر على الجانب الوصفي منها دون الجانب التحليلي . وسيشار الى ما كتبه ياقوت الحموي في معجمه عن ظواهر الجغرافية الطبيعية في مكان آخر .

اصالة الجغرافية العربية

ذكر أبو الفدا أسماء (٦٠) عالماً جغرافياً من الذين ظهروا قبله .[٦١] وتضم المكتبة الجغرافية العربية انتاج ما يقرب من الثلاثين من كبار المؤلفين العرب الذين وصلت الينا آثارهم .[٦٢] وهذا يدل على ما تزخر به الجغرافية العربية من مصنفات في مجال اختصاصها وما للعرب من فضل على علم الجغرافية وتطوره .

والجغرافيون العرب بعد أن نقلوا عن اليونان وغيرهم ، زادوا عليها ما شاهدوه اثناء خوضهم البحار وارتيادهم الأخطار وتميزوا على الرومان شاهدوه اثناء خوضهم البحار ، وارتيادهم الاخطار . وتميزوا على الرومان بكونهم عرفوا الصين وافريقيا واجتيازهم الصحراء الى ان وصلوا الى السودان ورغم اعتقادهم بأن جهود الاغريق بلغت ذروتها فيما كتبه بطليموس الا انهم لم يتقبلوا كل ما جاءت في كتاباته . فقد حرصوا في بداية الامر على تفهم ما انتهى اليه غيرهم ، ثم انتهجوا نهجاً خاصاً بهم حيث اخذوا يحللون ويناقشون الآراء الواردة في تلك الكتابات نتيجةً لدراساتهم وتحقيقاتهم الخاصة . فاعادوا حساب طول الدرجة وتوصلوا الى نتائج في غاية الدقة .

وقد فند العرب بعض الآراء التي جاء بها بطليموس وصححوا كثيراً من اخطائه ، إذ ان عدداً ليس بالقليل من مواقع المدن التي عينها بطليموس كانت غير مطابقة للواقع . ويكفي أن تقابل بين الامكنة التي عينها الاغريق وتلك التي عينها العرب ليظهر مدى التقدم الذي احرزه العرب الذين توصلوا الى ممارف فلكية مضبوطة ساعدتهم على تصحيح الخرائط اليونانية ورسم غيرها مضبوطة .[٦٣]

فمن الاخطاء التي وقع فيها بطليموس وصححها الجغرافيون العرب تقديره لطول البحر المتوسط بـ(٦٢) درجة ، اختزلها الخوارزمي الى (٥٢) درجة ، وتلاه أبو اسحاق الزرقالي (٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م) فاختزله الى (٤٢) درجة ، أي ما يعادل طوله الحقيقي .[٦٤] اي ان مقدار غلطه بلغ نحو ٤٠٠ فرسخ .[٦٥]

واخطأ بطليموس في تقدير طول البحر الهندي الذي اعتبره بحيرة مقفلة فقدر طوله بـ(٨٠) درجة ، في حين لم يتجاوز طوله الحقيقي ٤٢ درجة .[٦٦] ومن اخطاء بطليموس أيضاً جعله ساحل افريقيا الشرقي ممتداً نحو الشرق الى ما يقابل ساحل الصين . وقد انتبه البتاني والمسعودي الى ذلك فجعلا ساحل افريقيا محاطاً بالبحر من جميع الأطراف ، كما جعلا البحر الهندي بحراً مفتوحاً كما هو عليه الحال .[٦٧]

وبالاضافة الى ما تقدم فقد أخطأ بطليموس في قياس محيط الدائرة العظمى للارض وبلغ الفرق بين قياساته وما توصل اليه العلم الحديث بنحو ١٧٣٠ كم بالنقصان . في حين بلغ الفرق المذكور عند الخوارزمي ورفاقه بنحو ١٧٨ كم فقط بالزيادة على ما يظنه (سوتر) .[٦٨]

وبلغت الجغرافية العربية ذروتها في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الذي يمثل دور النضج والابداع والابتكار في الجغرافية ، حيث ظهرت فيه سلسلة مصنفات جغرافية شقت طريقها نحو تكوين نهج عربي خاص يتصل اتصالاً وثيقاً بـ« اطلس الاسلام » . وقد بلغت جهود العرب الجغرافية ذروتها فيما كتبه المسعودي ، واكتملت معرفتهم عن العالم فيما كتبه البيروني عن الشرق . والادريسي في القرن الذي يليه عن الغرب .

وأهم ما اتصفت به الجغرافية العربية انها كانت تقوم على أساس المشاهدة العملية والتحقيق . فشغف الجغرافيون العرب

www.attaweel.com

بالاسفار والجولان في مختلف انحاء العالم لجمع معلوماتهم عن شاهد عيان ، مما يزيد في قيمة صحة المعلومات .

فاليعقوبي يقول عن نفسه أنه سافر وحدث وسأل : « ... فكنتُ متى لقيتُ رجلًا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ... مسافة ذلك البلد .... ومبلغ خراجه .... » .[٦٩] وابن حوقل يقول : « .... واعانني عليه تواصل السفر وانزعاجي عن وطني .... ».[٧٠] وأما المقدسي فقد جال في البلدان وساح في البراري وتاه في الصحاري وأشرف على الغرق . وقد انتقد في كتابه « احسن التقاسيم » من سبقه من الجغرافيين الذين لم يعتمدوا فيما كتبوه على المشاهدة والمعاينة والتحقيق والتحليل . فقد انتقد (الجيهاني) الذي جمع « الغرباء وسألهم عن الممالك » ولم يعتمد على مشاهداته . وانتقد أبا (زيد البلخي) الذي اختصر « ولم يذكر الاسباب المفيدة ولا أوضح البلدان ولا وطىء الاعمال .... » . وأما (ابن الفقيه الهمداني) فقد أدخل « في كتابه ما لايليق به من العلوم » . وأما (الجاحظ ، وابن خردانبة) فإن كتابيهما « مختصران جداً لا يحصل منهما كثير فائدة » . ويقول مؤكداً فضل كتابه على كتب الاخرين : « ... لا يعرف فضل كتابنا هذا إلا من نظر في كتبهم أو دوّخ البلدان وكان من أهل العلم والفطنة » . ويقول مفتخراً : « اعلم اني اسستُ هذا الكتاب على قواعد محكمة واسندته بدعائم قوية وتحريتُ جهدي الصواب .... » . فقد « ذكرنا ما رأيناه وحكينا ما سمعناه ، فما صحّ عندنا بالمعاينة وأخبار التواتر أرسلنا به القول وما شككنا فيه ، وكان من طريق الاحاد أسندناه الى الذي منه سمعناه ... » .[٧١]

أما هدف المقدسي من وراء ذلك فهو وكما يقول « ان أقصد علماً قد اغفلوه ، وانفرد بفن لم يذكروه ... ».[٧٢] ولم يتوصل الى هذا العلم الا بعد جولاته ومشاهداته الميدانية أو على حد قوله « وما تم لي جمعه الا بعد جولاني في البلدان وبخولي اقاليم الاسلام ولقاءي العلماء وخدمتي الملوك ومجلستي القضاة ودرسي على الفقهاء واختلافي الى الادباء والقرّاء وكتبه الحديث ... مع لزوم التجارة في كل بلد والمعاشرة مع كل أحدٍ ، والتفطن في هذه الاسباب بفهم قوي حتى عرفتها ومساحة الاقاليم بالفراسخ حتى اتقنتها ودوراني على التخوم حتى حررتها ، وتنقلي الى الاجناد حتى عرفتها ... » .[٧٣]

أما ابو الفدا (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) فقد تناول في كتابه « فتوح البلدان » من تقدمه من الجغرافيين بالنقد فذكر ان ابن خرداذبة وابن حوقل والادريسي لم يحققوا الاطوال والعروض ، ومؤلفو الزيجات وغيرهم لم يحققوا في الاسماء ، أما هو فقد جمع بين التحقيق في الاسماء والاطوال والعروض .[٧٤]

ومما أمتازت به الجغرافية العربية أيضاً عدم ترك الظاهرة الجغرافية دون تحليل أو تعليل في كثير من الحالات .

فذرى البيروني يفسر امتناع الهنود عن اكل لحوم البقر باسباب اقتصادية ، وربطه حركة المد والجزر بأوجه القمر ، أي كما يقول العلم الحديث تماماً . ويحاول الاصطخري ان يربط العلة بالمعلول كما يتضح من مقدمته حول مفهوم الاقليم . وابن خلدون هو الآخر يعلل كثيراً من الظاهرات البشرية والاقتصادية بعوامل مناخية . وهكذا قل بالنسبة لبقية الجغرافيين .

اما الانتقاد الذي يوجه الى الجغرافية العربية فهو خلوها من بيانات تتعلق بعدد السكان وتوزيعهم . وكذلك احصاءات الانتاج الزراعي والصناعي والنشاط التجاري باستثناء الاحصاءات المتعلقة بالخراج ودخل الدولة ، وارقام اخرى متناثرة هنا وهناك . والارقام التي يوردها قدامة بن جعفر عن ارتفاع السواد ماخوذة من القيود الرسمية للسنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، وهو يذكرها بالحنطة والشعير والدراهم .

المدارس الجغرافية العربية

يمكن تمييز أربع مدارس جغرافية عربية من حيث مدى اصالتها وتاثرها بمعارف الاقوام الاخرى :[٧٥]

١ ـ مدرسة العصر العباسي : وهي المدرسة المتاثرة في أول نشأتها بالفكر الهندي (متل اعتمادها تقسيم العالم على اساس نظام (الكشاور) على شكل دوائر ، وكذلك تاثرها بنظام الفلك الهندي المسمى (السندهند) . وفي عصر الترجمة ازداد تاثير اليونان واصبح هو السائد فاخذ الجغرافيون العرب بنظريات بطليموس القائلة بكروية الارض وثبوتها ودوران الكرة السماوية حولها ، وقد قبلها الجغرافيون العرب باستثناء البيروني . كما اخذوا بتقسيم الارض الى سبعة اقاليم ، أو بالاطوال والعروض التي جاء بها بطليموس ، وغير ذلك ، وقد اتضح التاثر المذكور في مجال الجغرافية الكمية الرياضية والفلكية) ، وسبق توضيحها فيما تقدم .

ومع ان العرب قد تاثروا بما ذكر الا انهم وجدوا اخطاء عديدة عند بطليموس فابتكروا وسائل جديدة للقياس وقاموا بتصحيح كثيراً من الاماكن والنظريات المغلوطة عند بطليموس .

٢ ـ مدرسة الخوارزمي العربية :

وهي من ابتكار الجغرافيين العرب ولا صلة لها بغيرهم . ابتدأت في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) على يد محمد بن موسى الخوارزمي الذي قسم العالم على أساس الاقاليم السبعة وفق الاحداثيات الجغرافية على شكل مستطيلات متوازية مستفيداً مما حصل من تقدم فلكي عربي واجهزة قياس في عصر الترجمة ، وسار على منوال الخوارزمي فيما بعد عدة علماء اشهرهم الفرغاني والبيروني وسهراب . وكان اتجاه هذه المدرسة كمياً أساسه الرياضيات والفلك .

www.attaweel.com

٣ ـ المدرسة العربية الاسلامية :

يمثل القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) عصر ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، وفيه بلغت الجغرافية العربية مرحلة النضج من حيث اعتماد بحوثها على الرؤية والمشاهدة وجمع المعلومات من الحقل من خلال الرحلات والزيارات أو عن طريق السؤال . فضلًا عن اعتمادها على المصادر السابقة بعد النقد والتمحيص والتدقيق .

وانطلاقاً من المنهج المذكور ظهرت المدرسة العربية الاسلامية ، وقد حذت مصنفاتها حذو كتب المسالك والممالك بعد ان كان اتجاه مدرسة الخوارزمي كمياً . ويعود الفضل بهذا الاتجاه الى ابي زيد البلخي (٣٢٢ هـ/ ٩٣٤ م) مؤسس هذه المدرسة ، وأول من استقل عن بطليموس في كتابه « صورة الاقاليم » حيث يقول عنه المقدسي أنه قسم الارض الى عشرين جزءاً .[٧٦] وهنا يبدو الانفصال عن بطليموس . وقد ركز البلخي اهتمامه بوصف العالم الاسلامي ، ثم (اخذ عنه وأضاف اليه الجغرافي المشهور (الاصطخري) وعلى هذا الاخير اعتمد ابن حوقل .[٧٧] وهو رحالة أصله من بغداد ولكنه عاش طويلًا في شمال افريقيا فصححه واستدرك عليه . وتعالج هذه المدرسة كل بلد ومن حدوده السياسية مع خارطة توضح هذه الحدود وتبين مواقع المدن والجبال والانهار والبحار معتمدةً على الاحداثيات الجغرافية . وتقتصر هذه المدرسة في مادتها على جغرافية بلاد الاسلام ، وتهمل الاقطار الواقعة خارجها ، ودون اهتمام كبير بخطوط الطول وخوائر العرض .

ويتدرج في هذه المدرسة عدد من المصنفات المماثلة ، كما انها « تنفصل عن سلسلة الخرائط المرتبطة بها والمعروفة باسم (اطلس الاسلام) التي ليس لها علاقة بالنماذج البطليموسية . وسار على منوال هذه المدرسة بعض الجغرافيين أمثال (ابن خرداذبة ، اليعقوبي ، ابن الفقيه الهمداني ، ابن رستة ، المسعودي) الا انهم لم يقتصروا على وصف العالم الاسلامي ، بل شملت مصنفاتهم البلدان غير الاسلامية ، كما أولوا نفس القدر من الاهتمام بقصص العجائب .

ويضم أطلس الاسلام ، ٢١ خارطة تتابع بالصورة الآتية : يبدأ بخارطة العالم المستديرة ، يليها خارطة جزيرة العرب ، ثم بحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم ، وأربع عشرة خارطة اخرى تمثل الاجزاء الوسطى والشرقية للعالم الاسلامي .[٧٨] وقد أحصى (ميللر) ٢٧٥ خارطة وصلت الينا من تلك العصر للعالم الاسلامي . وكانت تمثل انتاجاً عربياً خالصاً كما يقول (ميللر) ، اطلق عليها اسم (أطلس الاسلام) باستثناء خرائط الادريسي .[٧٩]

والمقدسي هو آخر الممثلين الكبار للمدرسة العربية الاسلامية أو كما يسميها البعض باسم (المدرسة الكلاسيكية) ، حيث تنعكس صلته بهذه المدرسة في الخرائط اكثر مما في المتن . ويلاحظ في خرائطه تقدم المعلومات الجغرافية . كما ان تقسيم الاقاليم عنده يختلف بعض الشيء عما هو عليه في أطلس الاسلام . وهو يقصر وصفه على العالم الاسلامي . ويعتبره (اشبرنجر) اكبر « جغرافي عرفته البشرية قاطبةً » ، أو هو وكما يقول عنه كراتشكوفسكي « جغرافياً عظيماً وواحداً من كبار الكتاب العرب قاطبةً » .[٨٠]

٤ ـ المدرسة الجغرافية التاريخية الاندلسية المغربية :

دُرست الجغرافية في المغرب والاندلس على انها متممة للتاريخ ، وكان الرازي (٣٤٤ هـ/ ٩٥٥ م) أول من أدخل الجغرافية الاقليمية الى الاندلس بهذا المفهوم وفي وحذا حذوه الوراق (٣٦٣ هـ/ ٩٧٣ م) ثم الطوطوشي والعذري والبكري . وكان الادريسي (٥٦٠ هـ/ ١١٧٣م) أول جغرافي مغربي يعتبر الجغرافية علماً مستقلًا ويقدم دراسته على هذا الاساس .

وتعتبر خرائط الادريسي الاوج الذي بلغه فن رسم الخرائط الجغرافية عند العرب ، وخرائطه تمثل مدرسة جغرافية قائمة بذاتها سماها (ميللر) بـ(المدرسة العربية النورماندية) . ويضم اطلس الادريسي (٧٠) خارطة تمتاز بدقة الرسم وتقوم على أساس الخطوط المستقيمة والدوائر الهندسة[٨١] مراعيةً في ذلك خطوط الطول ودوائر العرض ومطابقتها للواقع . وكانت لخرائطه اثر كبير في تصوير العالم للاوربيين مدة طويلة بعد عصره .

ويعد كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » نقطة تحول في النشاط الجغرافي والكارتوغرافي في العالم ، إذ انتقلت حركة الدراسات الجغرافية والكارتوغرافية من المشرق العربي الى المغرب العربي على ساحل البحر المتوسط . مما جعل بعض الباحثين ان يطلقوا اسم (عصر الادريسي) على فترة الانتقال هذه ، باعتباره يمثل جغرافي المغرب .[٨٢]

والغريب ان معرفة الناس بالادريسي لم تكن واسعة في المشرق الاسلامي . ولا يخلو من مغزى في هذا الصدد أن خبيراً كبيراً بالادب الجغرافي مثل ياقوت الحموي لا يعلم عنه شيئاً على الاطلاق .

وقد توقف الابتكار العربي في الجغرافية بعد الادريسي واستنفذ طاقته الخلاقة بشكل نهائي خلال القرن الخامس عشر . الا ان الادب الجغرافي الملاحي ظل يحتل المكانة الاولى في الادب الجغرافي العربي طيلة القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ويمثل آخر تيار أصيل في هذا المجال حتى فترة متأخرة . ويبرز في هذا الميدان ابن ماجد [٩٠٠ هـ/ ١٤٩٤ م] الذي أوجد أنق خارطة بحرية وتكاد تكون الاثر الوحيد الذي استعان بها [فاسكودي غاما]

www.attaweel.com

في تطوافه حول الارض [٨٢]

وتبعاً لما تقدم يمكن تلمس ثلاثة اتجاهات في مصنفات الجغرافية العربية :

أ ـ الاتجاه الاول وتتمثل فيه عناية مركزية بأقاليم العالم الاسلامي والاقطار المجاورة له ، ويتمثل هذا الاتجاه في [مدرسة اطلس الاسلام] والكتّابالذين ساروا على منوالها .

ب ـ يتمثل الاتجاه الثاني بنوع من التخصص في قطر واحد أو منطقة معينة ، وهي تدخل ضمن موضوعات الجغرافية الاقليمية مثل تناول الهمداني لجزيرة العرب ، والبيروني فيما كتبه عن الهند ، ووصف ابن فضلان عن بلغاري الفولغا ، ويتمثل الاتجاه الثاني أيضاً في التخصص بمدينة معينة ودراستها من حيث جغرافيتها التاريخية وخططها وخصائصها الطوبوغرافية ، ويأتي اليعقوبي على رأس هذا الاتجاه .

جـ ـ الاتجاه الثالث وفيه تم التاكيد على المعاجم الجغرافية والموسوعات العامة ، حيث تميزت الفترة التي اعقبت القرن الخامس الهجري بظهور القواميس أو المعاجم الجغرافية مما عزز المكتبة الجغرافية العربية بمعلومات منسقة على النحو المتبع في عصرنا هذا . واشهرها معجم ما استعجم للبكري ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي الذي بلغ الاوج في نمط المعاجم .

كما ازدهر نمط الموسوعات العامة [دوائر المعارف] في عصر المماليك حيث افرد فيها للجغرافية مكانة بارزة ومنها الجغرافية العامة والسياسية .

وهذه الموسوعات هي خير ما أنتجه ذلك العصر ، حيث ميزت القرنين الرابع عشر والخامس عشر بهذا النمط من المؤلفات . واكبر تلك الموسوعات : [نهاية الارب] للنويري [٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م] ، و[صبح الاعشى] للقلقشندي ، و[مسالك الأبصار] لابن فضل الله العمري [٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م] .

وخاتمة القول : ان العرض والتحليل الذي تضمنه البحث أوضح وجود اتجاهات متعددة بين الجغرافيين العرب ، واختلاف في منهجهم العلمي ، ومستوى نضجهم الفكري ، فهم بين مقلد ومجدد ومبتكر . كما ان اسلوبهم الذي اتبعوه للوصول الى الحقيقة متباين ، فمنهم من اكد على الرواة دون تحقيق الرواية ، ومنهم من اعتمد على السؤال دون التحري عن مدى صحة الجواب ، ومنهم من اعتمد على مؤلفات غيره ، ومنهم من اتخذ الرحلة والمشاهدة والتثبت مما يسمعه او يقرأه اساس ما يكتب . ومنهم من جمع بين هذا وذاك .

الهوامش

(١) عدي يوسف مخلص ، المقدسي البشاري : حياته ومنهجه ، ط ١ ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٧٣ ، ص ٩٨ .

(٢) محمد محمود الصياد ، من الوجهة الجغرافية : دراسة في التراث العربي ، دار الاحد البحيري ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١١ ـ ٢١ ، ونفيس احمد ، جهود المسلمين في الجغرافية ، ترجمة فتحي عثمان ، سلسلة الالف كتاب (رقم ٢٧٢) ، دار القلم ، القاهرة ، ص ٢٥ .

(٣) كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، القسم الاول ، نقله الى العربية صلاح الدين عثمان ، جامعة الدول العربية ، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

(٤) نفس المرجع ، القسم الاول ، ص ٤٠ .

(٥) فيليب متي وآخرون ، تاريخ العرب (مطول) ، ج ١ ، دار الكشاف ، بيروت ، ١٩٥٢ ، ص ٥٦ .

(٦) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

[*] طوفيا : فيه كان مصير الجودي الذي رسى عنده فلك نوح .

(٧) كراتشكومسكي ، مرجع سابق ، ١ /٤٩ .

(٨) عن هذا الفرع من الجغرافية راجع : نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١١ ـ ١٢

(٩) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٦٠ ـ ٦١ .

[*] يقترن باسم الحجاج اول ذكر معروف لدينا عن الخرائط عند العرب حيث رُسمت خريطة (الديلم) بامر من الحجاج لفرض فرض الجزية عليها . وجاء ذكر (الصورة) في مناسبة اخرى حينما استبطا الحجاج حصار قائدة لبخارى فارسل اليه صورة المنطقة سنة ٨٩ هـ / ٧٠٨ م ثم بعث بتعليماته حول الخطط العسكرية الواجب اتباعها اعتماداً على تلك الصورة . كما وضعت خريطة اخرى لفرض الارواء في عهد المنصور ، أي في اوائل العصر العباسي (ابن الفقيه الهمداني ، مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٨٣ ، والبلاذري ، فتوح البلدان ، الطبعة الاوربية ، ص ٣٧) .

(١٠) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٦٠ ـ ٦١ .

(١١) احمد سوسة ، الشريف الادريسي ، في الجغرافية العربية ، الباب الاول ، نقابة المهندسين العراقية ، طبع مكتب صبري ، بغداد ، ١٩٧٤ ، ص ٩٤ .

(١٢) عباس فاضل السعدي ، « التوزيع الجغرافي لزراعة الخضراوات في العراق » ، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٥٤ ، السنة ١٤ ، ابريل ١٩٨٨ ، ص ١٢٤ .

(١٣) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /ج ج ، دد .

(١٤) علي محمد المياح ، « مناهج الجغرافيا الاقليمية عند العرب في التراث والمعاصرة » مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج ١ ، مجلد ٤٠ ، ١٩٨٩ ، ص ٢٣١ ، ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

[*] هو كتاب الفقه الفلكي والرياضي الهندي (ابراهيم كبت) سنة ٦٢٨ م بعنوان « سدهانت » ترجم في عهد الخليفة المنصور باسم « السندهند » .

www.attaweel.com

(١٥) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٧٠ـ ٧٢ .
(١٦) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٧٢ـ ٧٣ ، واحمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /٢٢٨ .
(*) بخصوص كروية الارض قال ابن رستة : « والارض مستديرة أيضاً كالكرة مصمتة في جوف الفلك قائمة في الهواء » . أو كما قال ابن خرداذبة (٢٨٠ هـ/ ٨٩٢ م) أنها « مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمُحة في جوف البيضة » . والدليل على ذلك أن « الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يوجد طلوعها ولا غروبها على جميع من في نواحي الارض في وقت واحد ، بل يُرى طلوعها على المواضع المشرقية من الارض قبل طلوعها على المواضع المغربية ، وغيبوبتها عن المشرقية أيضاً قبل غيبوبتها عن المغربية » (ابن رستة ، الاعلاق النفيسة ، المجلد ٧ ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٩١ ، ص ٨ ـ ١٢ ، وابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، تحقيق دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٨٨٩ ، ص ٤) .
(١٧) ابن رستة ، مرجع سابق ، ٧ /١٠ .
(١٨) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٧٥ ـ ٧٧ .
(١٩) نفيس احمد ، مرجع سابق ، ص ١٩ ـ ٢١ .
(*) يرى المرحوم الدكتور ابراهيم شوكة ان الخوارزمي قد اطلع على كتاب « جغرافيا » لمارينوس ، وليس لبطليموس ، إذ لم يطلع العرب على ترجمة كتاب بطليموس الصحيحة إلا في زمن متاخر بكثير من بعد المامون . وعليه فان الخوارزمي يكون قد تاثر بتراث أبناء عمومته الفينيقيين وليس اليونانيين (ابراهيم شوكة ، « تفكير العرب الجغرافي وعلاقة اليونان به » مجلة الاستاذ ـ تصدرها كلية التربية ببغداد ـ العدد ٢٩ / ١٩٦ ، ص ٢٢) .
(*) الميل العربي يساوي ١٩٧٣ م (أو اقل من الكيلومترين بقليل)
(٢٠) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ .
(٢١) قدري حافظ طوقان ، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، ط ٣ ، دار القلم ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ١٩
(٢٢) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٨٣ ـ ٨٤ .
(٢٣) عباس فاضل السعدي « البيروني : أشهر عباقرة زمانة » ، مجلة العربي ، الكويت ، العدد ١٦٢ ، مايو (ايار) ١٩٧٢ ، ص ١٠٢ .
(٢٤) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ط ٢ ، نقله الى العربية عادل زعيتر ، مطبعة دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٥٥٢ ، وصبري محمد حسن ، الجغرافيون العرب ، ج ١ ، مطبعة القضاء ، النجف ، ١٩٥٨ ، ص ١٥ .
(٢٥) غوستان لوبون ، مرجع سابق ، ص ٥٥١ ـ ٥٥٢ .
(٢٦) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، روائع التراث العربي (رقم ٤) ، مكتبة خياط ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ص ٣٣ .
(٢٧) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٨١ .
(٢٨) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /٩٥ .
(٢٩) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /١٢٤ ـ ١٢٥ .
(٣٠) ابن النديم ، الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ، ١٩٧١ ، ص ١٣٠ .
(٣١) ابن خرداذبة ، مرجع سابق ، ص ٣ .
(٣٢) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ط ٣ ، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف ، ١٩٥٧ ، ص ٣ ـ ٢٣ .
(٣٣) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، المجلد الاول ، دار صادر دار بيروت ، ١٩٥٥ ، ص ٢٣٠ .
(٣٤) ابراهيم شوكة « كتاب الاقاليم المؤلفة الاصطخري » ، مجلة الاستاذ (تصدرها كلية التربية ببغداد) ، المجلد العاشر ، ١٩٦٠ ، ص ٢٣٠ .
(٣٥) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /١٠٠ ـ ١٠١ .
(٣٦) ابراهيم شوكة ، كتاب الاقاليم ، مرجع سابق ، ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .
(٣٧) الاصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني ، مراجعة محمد شفيق غربال ، ج ع م ، وزارة الثقافة والارشاد ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ١٥
(٣٨) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق ، ص ٢٥ .
(٣٩) الاصطخري ، مرجع سابق ، ص ٩ .
(٤٠) نفس المرجع ، ص ٩ .
(٤١) المقدسي البشاري ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ط ٢ ، بعناية دي غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٠٦ ، ص ٩ .
(*) الانثروبولوجيا : هو علم الانسان ويبحث في أصل الجنس البشري وتطوره واعراقه وعاداته ومعتقداته .
(٤٢) راجع مختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمداني ، عناية دي غوية ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ ، ص ٤ ـ ٥ وقارنها مع المسالك والممالك لابن خرداذبة ، ص ٤ .
(٤٣) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /١٣٠ .
(٤٤) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /١٠٢ .
(٤٥) احمد أبو سعد ، أدب الرحلات وتطوره في الادب العربي ، ط ١ ، منشورات دار الشرق الجديد ، سلسلة الفنون الادبية عند العرب (رقم ١٠) ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٢١ . راجع ايضاً : رحلة السيرافي ، دار منشورات البصري ، مطبعة دار الحديث ، بغداد ، ١٩٦١ ، ص ٢٩ ـ ١٠٨ . الفنون الادبية عند العرب (رقم ١٠) ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٢١ .
(٤٦) نفس المرجع ، ص ٤٨
(٤٧) نفس المرجع ، ص ١٧٤ . راجع ابن بطوطة ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة مصطفى محمد القاهرة ، ١٩٣٨ .
(٤٨) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /١٣٦ ـ ١٣٧ .
(٤٩) أحمد أبو سعد ، مرجع سابق ، ص ١٧٤ .
(٥٠) ابن حوقل ، كتاب صورة الارض ، ط ٢ ، (القسم الاول) ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٩٣٨ ، ص ٢ ـ ٣ .
(٥١) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /١٠٢ .
(٥٢) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /١٣٦ .
(٥٣) احمد بن فضلان ، رسالة بن فضلان ، تحقيق سامي الدهان ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، ١٩٥٩ .
(٥٤) نفيس احمد ، مرجع سابق ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .
(٥٥) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /٤٩ .
(٥٦) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /١٣٤ ـ ١٣٦ .
(٥٧) نفس المرجع ، ١ /١٣٨ ـ ١٣٩ .
(٥٨) عباس فاضل السعدي ، البيروني ، مرجع سابق ، ص ١٠٢ .
(٥٩) محمد محمود الصياد ، مرجع سابق ، ص ٢٨ .

www.attaweel.com

(٦٠) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١/ ٢٢٨ .
(٦١) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٥٦٩ .
(٦٢) نقولا زيادة ، الرحالة العرب ، سلسلة الالف كتاب (رقم ٩٧) ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٣٦ .
(٦٣) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٥٦٩ .
(٦٤) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /غ .
(٦٥) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٥٦٦ .
(٦٦) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /غ .
(٦٧) نفس المرجع ، ١ /لا .
(٦٨) زهير الكتبي ، محمد بن موسى الخوارزمي ، سلسلة علماء العرب (رقم ١) . منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ١٤
(٦٩) اليعقوبي ، مرجع سابق ، ص ٢ .
(٧٠) ابن حوقل ، مرجع سابق ، ص ٢ .
(٧١) المقدسي ، مرجع سابق ، ص ١ ـ ٨ .
(٧٢) نفس المرجع ، ص ١ .
(٧٣) نفس المرجع ، ص ٤ .
(٧٤) أبو الفدا ، كتاب تقويم البلدان ، تحقيق رينود وديسلا ، دار الطباعة السلطانية باريس ، ١٨٤٠ ، ص ١ ـ ٢ .
(٧٥) حول تصنيف هذه المدارس راجع : احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /دد ، ونقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، مرجع سابق ، ص ١٧ ، ٣١ ـ ٣٣ .
(٧٦) المقدسي ، مرجع سابق ، ص ٤
(٧٧) قارن بين ما كتبه الاصطخري (ص ١٥ ـ ١٩) وبين ما كتبه ابن حوقل (ص ٢ ـ ٥) لنجد التشابه الكبير بل حتى ترديد نفس العبارات بينهما .
(٧٨) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٢٠٦ ـ ٢٠٧ .
(٧٩) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /لا .
(٨٠) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ١ /٢١٥ .
(٨١) نفس المرجع ، ١ /٢٨٩ ـ ٢٩٢ .
(٨٢) احمد سوسة ، مرجع سابق ، ١ /ب ب .
(٨٣) صبري محمد حسن ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

• • • •

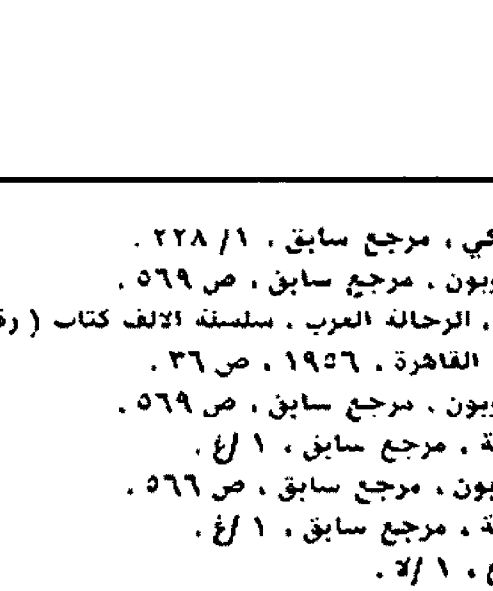
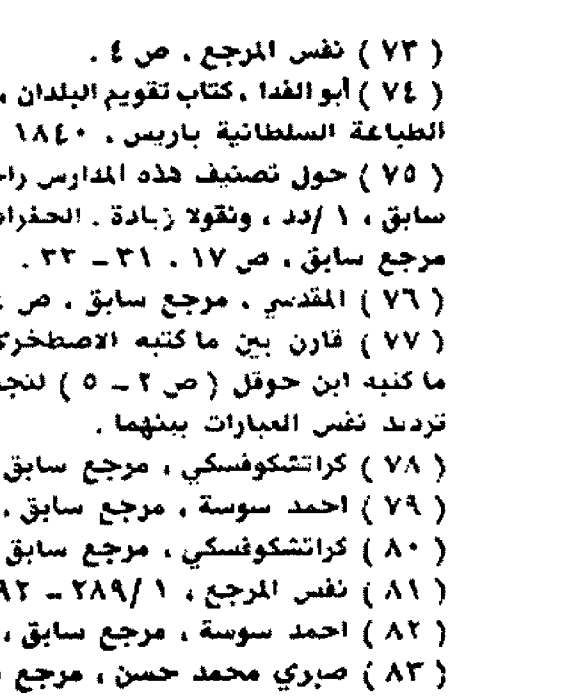
صدر حديثاً عن دار الشؤون الثقافية

www.attaweel.com